بَلاغَة التّرسُّلِ

قراءة في حِكَايَة النّمِر والثَّعلَب لسهل بن هارونَ (ت ٢١٥هـ)

م. م كاظم جابر حسن(*)

ملخص البحث:

يتناول البحث قراءة تحاول الوقوف على أهَمّ مواطن الإثارة والجمال في المراسلات التي جرت بين النّمِر والذِّئب في حِكَايَة (النَّمِر والثَّعلَب) لسهل بنِ هارونَ (ت ٢١٥هـ)، وما حملته تلك الرّسائل من قيم أدَبيّة وفَنّيَّة وجَمَاليّة عالية لا تخفى على القارئ، فقد جاءت معبرةً عن خلجات نفوس متخاصمة، وحاملةٌ لكثير من القيم الأدَبيّة والبَلاغِيّة التي بدت ظاهرة في ألفاظها ومَعَانِيها، في الوقت نفسه فإنَّها كانت ذات فرادة لُغَويّة مثيرةً للقارئ على نحوٍ لا يقل شأنًا عمَّا يفعله الشّعر في نفوس متلقّيه، وهنا تكمن مواطن الإثارة فيها، لاسيّما وهي تصدر عن كاتبٍ متمرسٍ له باعٌ طويلٌ في كتابة الرّسائل، وكيف أجاد ببراعته الأدَبيّة أن يقحم فنًّا نثريًا له خصائصه ومميزاته في خدمة جِنس أدَبيّ آخر ألا وهو جِنس الحِكَايَة؟.

أما من جانب آخر فإنَّها ـ أي الرّسائل ـ كانت إحدى البنى الأساسيّة في حِكَايَة النّمِر والثَّعلَب، فالأحداث تتطور بتطور مضامينِ تلك الرّسائل، وتتصاعدُ وتيرتُها كلَّما عبَّرتْ عن مكنوناتِ النّفوس المتخاصمة، إنها نوع من الحرب الكلاميَّة الظريفة التي تشدُّ القارئ نحوها وتغريه بمتابعة الحدث، بما تَتضمّنه من ألفاظ ومعانٍ أحسنَ فيها الكاتبُ وهو يزجُّنا بشغفٍ متواصل لنتابعَ سيرَ الأحداث.

(*) مديرية تربية ذي قار.

الكلمات المفتاحية: ترسَّل، حكاية، نمر، ثعلب، ملك، تهديد، إثارة، مناجزة كلامية.

شهد الأدَبُ العَرَبيّ في العَصر العَبَّاسِيّ تطورًا ملحوظًا بفنيه الشّعري والنَّثريّ، فقد اتسعت رقعة البلاد العَرَبيّة واتّسعت معها تجلّيات الخطاب الأدَبيّ ومعطياته شعرًا ونثرًا، فكان من الطّبيعي أن يضطلع هذا الخطاب بمهامّه الجَديدة والخَطيرة متماشيًا مع المضامين الوافدة والأفكار التي انتقلتْ إلى البلادِ العَرَبيّة عبر احتكاك العَرَب ببقيةِ الأمم نتيجة لحركات الفتوحاتِ أو التّرجمة أو غيرها من وسائل التّلاقح الفِكريّ الأخرى، من أجل ذلك كان على الخطاب الأدَبيّ أن يستوعب كُلّ ما احتضنته الثَّقافَة الجديدة مِمّا هو جديد ورائج، فتصدَّى النَّثرُ الفَنّيّ ـ كما هو الحال بالنسبة للشعرـ لاستيعاب كُلّ ما هو جديد وقادر على مواكبة حركة التّطور الحَضَاريّ والفِكريّ والأدَبيّ التي شهدها الأدَب العَرَبيّ في هذا العَصر.

وقد كان حظ الرّسائل وافرًا في هذا العَصر بشكلٍ لا يخفى على الباحثين والدارسين، فقد تخطّت حدودها الضّيقة التي كانت عليها في العَصر الأمويّ، فتعددت أنواعها، وتطورت غاياتها، وامتازت خصائصها بما لم تكن عليه إبّانَ عصورها السّابقة، حيث بلغت أرقى مستوياتها الفَنّيَّة تلبية لحاجات العَصر ومتطلّباته الأدَبيّة والثَّقافيّة، لذلك حظي كتَّابها بمكانة مرموقة لدى الخُلَفَاء حتى أنَّ بعضهم بلغوا مرتبة الوزراء[1]، وإن ما وصل إلينا من رسائل تخص العَصر المذكور دليل على قيمة هذا الفَنّ وأهميته في هذا العَصر الذي يقارب أمده الخمسة قرون.

ولسنا هنا بمعرض الحديث عن الرّسائل في العَصر العَبَّاسِيّ، بل إن البحث يتّجه نحو أحد أعلامه وهو يوظف فَنّ التّرسُّل في حِكَايَةٍ ظريفةٍ على ألسِنَة الحَيَوَانات، هذا النّوع من الحِكَايَات الذي تطور هو الآخر وأخذ منعطفًا هامًا وخطيرًا أملته ظروف العَصر المليئة بالأحداث السّياسيّة التي تجرَّع إثرها عوامُّ النّاس ألَمَ الفقرِ والعَوَز والتّهميش، فتَصدّى بعضُ الأدَباء لنقدِ السّلطة التي كمّت أفواه المنتقدين والمعارضين متخذين من الحِكَايَة على ألسِنَة الحَيَوَانات شكلًا من أشكال المعارضة المتوارية خلف مضمونها الأدَبيّ، ولا يعني ذلك أنَّ العَرَب لم يعرفوا قصص الحَيَوَان قبل عصرهم هذا، بل أنهم عرفوا هذا النّوع من القصص في زمن متقدم كغيرهم من الأمم الأخرى، فالحِكَايَة على لسانِ الحَيَوَان تُعد من أهَمّ صور العمل الشّعبي لدى كُلّ الشّعوب وفي كُلّ الأزمان[2]، وإنَّ تَطوّر وجودِها عند العَرَب كان بحسب ما اقتضته الثَّقافَة العَرَبيّة نفسها، إذ أنها ارتبطت في نشأتها الأولى بالأساطير والخُرافاتِ والجِنّ بحسبِ ما تُمليه الرّؤى الفِكريّة للعقل البدائيّ القديم، حتى وصلتْ إلى العَصر الذي كتب فيه ابن المُقَفّعِ (ت ١٤٢ هـ) (كليلة ودمنة)، فكان «أول من نقل هذا الفَنّ القصصي من مرحلته الشّفاهية (الشعبية) عند العَرَب إلى الأدَب المدون (الكتابي)، في أول

(١) يُنظَر: بلاغة الكُتّاب في العَصر العَبَّاسيّ، د. محمد نبيه حجاب، ص٨٣.

(٢) يُنظَر : أديب الأسطورة عند العرب، فاروق خورشيد، ص٩٧.

خطوة مــن نوعها في تاريخ الأدَب العَرَبيّ القديم عامة والإبداع القصصي خَاصّة»[٣].

إنَّ مــا فعله ابنُ المُقَفّعِ في عمله النّادر الفَريد هذا قد أحدثَ تغيرًا كبيرًا في مسار هذا النّوع من الحِكَايَات (الحِكَايَة على ألسِــنَة الحَيَوَاناتِ) على المُســتوَيَين الأدَبــيّ والوظيفيّ، فعلى المُســتَوَى الأدَبــيّ، أخــذتْ الحِكَايَة علــى ألسِــنَة الحَيَوَاناتِ بعد تدوينِهــا مكانًا متميزًا فــي المُدوَّنة الكتابيّة لــلأدَبِ العَرَبيّ على العكس مِمّــا كانت عليه إبّانَ حقبتها الشّفاهيّة غير الثّابتة، فهيَ بالإضافةِ إلى كونِها فنًّا حكائيًا شيقًا يستهوي العَامَّة والخَاصَّة على الســواء، لما فيه من بُعدٍ خياليّ تصبو نحوه النّفــوسُ وتُصغي إليهِ الأســماعُ، أصبحت فنًا من فنون السّرد العَرَبيّ القديم.

أمــا علــى المُســتَوَى الوَظيفــيّ فقــد تطورت وظائفها التّعليمية والأخلاقيّة والتّرفيهيّة لتصبح بالإضافــة إلــى كُلّ هــذه الوظائــف وغيرها ذات وظيفةٍ سياسيّة وبُعدٍ رمزيّ ينضوي تحته القصدُ في تعريةِ الأنظمةِ السّياســيّة، وكشــف فســادها وعيوبهــا، وما يتبعُ ذلكَ مــن ظلمِها للرعيّة، وهذا مــا أتــاحَ لها ميدانًا رحبًــا لم تكن قــد وَلِجَته في عصورِها السّابقة.

إنَّ الرّيــادة التي حظيَ بها ابنُ المُقَفّعِ في هذا المجــالِ تَتجلى في أنّه قدّم لــلأدبِ العَرَبيّ كتابًا وضعَ فيه أصولُ هذا الفَــنّ النَّثريّ المُمتِع، فكانَ مــن الطّبيعــي أنْ يتأثرَ به كُلّ مَن حــاول الكِتَابَة بعــده في هذا الفَنّ[٤]، ولم يكن ســهلُ بنُ هارونَ ســوى أحدِ الذيــن فُتِنــوا بما فَعَلــهُ ابــنُ المُقَفّعِ فــي (كليلةَ ودِمنَة) علــى الرّغمِ مِمّــا كانَ يمتلكُه الأوّلُ مِــن بَراعــةٍ أدَبيّــة، فقد شــهد لــه الجاحظُ بتلــك البراعة إذ يقول « ومن الخُطَباء والشُّــعَراء الذين جَمَعوا الشّــعر والخُطَب والرَّســائلَ الطّوال والقِصار والكُتبَ الكِبارَ المُخلّدة والسّيَر الحِسانَ المُدوّنــة والأخبارَ المُولَّدة ســهلُ بــنُ هارونَ»[٥]. وليسَ أدلّ على شهادة الجاحظ لسهلِ بن هارونَ مِمّا تركَه لنا الأخيرُ من آثارٍ عدةٍ تدلّ على المَقدرةِ الأدَبيّــة التــي يمتلكهــا، نذكــرُ منها على ســبيل المِثــال كتاب (ثَعلة وعَفــراء) أو (عَفرة) و(النَّمِرُ والثَّعلَــب) و(المَخزومــيّ والهذليــة) وغيرها من الآثار الأخرى[٦]، التي كانت ســببًا في علوّ شــأنِه الأدَبيّ وقربِه من الخُلَفَاء.

إنَّ مــا يهمّنا في هذا البحــثِ هو الوقوفُ على بَلَاغَة التّرسُّــلِ في حِكَايَة النّمِــر والثَّعلَب، وكيف تحكّمــتْ مضامينُهــا البَلاغِيّة في ســير الأحداث، فقد أقحَمَ الكاتبُ التّرسُّل في بنيةِ الحِكَايَة جَاعلًا منهُ عنصرًا مُهمًا ومهيمنًا، إذ تنمو الحِكَايَة شــيئًا فشــيئًا على أكتاف التّرسُّــل حتى تصل لما أراده الكاتــبُ في بلوغِ غايتِه المَقصــودة، وهذا ما نودُّ أنْ نشــيرَ إليه قبل الخوضِ في غمارِ البَحث، وهو أنّ سهلَ بنَ هارونَ جعل من التّرسُّل ركنًا أساسيًا في بنية الحِكَايَة، بمعنى أنه قد وضع فَنّ التّرسُّل

(٣) حِكَايَــات الحيــوان في الــتُّراث العَرَبــيّ، محمد رجب النجار، ص١٩٠.

(٤)يُنظَر : قصــص الحيوان في الأدب العَرَبيّ، عبد الرزاق حميدة، ص١٣٧.

(٥) البيان والتبيين، الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، ج١ ص٥٢.

(٦) يُنظَر: الفهرست، ابن النديم، ص١٣٤.

فــي خدمة جِنس أدَبيّ آخر (فــنّ الحِكَايَة)، لذلك حظيــت حِكَايَــة النّمِــر والثَّعلَب بمكانــة خَاصّة، وليس على حد علمنا أنَّ هناك من شــابهه في هذا الأمر ممن كتــب الحِكَايَة على ألسِــنَة الحَيَوَانات، والسّــبب في ذلك ـ في رأينا ـ مرده إلى أنَّ سهل بن هارونَ وبعد أن قضى شطرًا طويلًا من حياته كاتبًــا للرّســائل فــي بــلاط الخُلَفَاء، لم يســتطعْ الإفــلاتَ من تأثير ســطوةِ تلك الرســائل على فنِّه الحكائي، حتى أننا نعتقــد جزمًا أنَّ حِكَايَة النّمِر والثَّعلَــب لا يمكن لها أن تبلــغ غايتها المقصودة دون التّرسُّــل الذي يُعد بنيــة قارة ومهيمنة فيها، أو بعبــارة أخرى كيــف لأحد أن يتصــور حِكَايَة النّمِر والثَّعلَب دون هذا التّرسُّــل الذي كان إحدى غاياتها كما أشار سهل بن هارونَ إلى تلك الغاية بقولــه «فإنّي رأيتُ أن أصنعَ لــك كتابًا في الأدَبِ والبلاغــةِ والتّرسُّــلِ والحُــروبِ والحِيَــل والأمثالِ والعالِــمِ والجاهــلِ، وأن أُشــرِبَ ذلك بشــيءٍ من الوَعــظِ، وضــروبٍ مــن الحِكَم، وقــد وضعتُ من ذلــك كتابًا مُختَصرًا شــافيًا، وجعلته أصلًا للعالِم الأديبِ والعاقل الأريب مِمّا أمكَنَني حفظُه، واطَّردَ لي تأليفُه»[٧]. فالتَّرَسُّــل كان مــن جُملةِ الغاياتِ التي وَضَع سهلُ بن هارونَ حِكَايَته من أجلِها كما أشارَ صراحة.

لقد وقف سهل عند كُلّ هذه القضايا التي أشار إليها في خُطبةِ الكِتاب، وقد وُفِقَ بها إلى حدٍ كبير، لكــن الذي يهمّنــا هو تلك المراســلات التي جرت بين النّمِر والذِّئب، فقد أفرغ ســهل بن هارونَ في هذه الرّســائل براعته الأدَبيّــة، فكانت قيمة أدَبيّة عليا في الحِكَايَة، فهي بالإضافة إلى كونها إحدى البُنى المهيمنة والقارّة فــي الحِكَايَة، فإنَّها أيضًا تحمــل في طياتها فرادة بَلاغِيّــة وجَمَاليّة، تجلَّت فــي نظمِها وألفاظِها وقوةِ مَعَانِيها وغير ذلك مِمّا سنقفُ عنده.

تقول الحِكَايَة إنَّ ثعلبًا يُقال له مَرزوق ويُكنى أبا الصّبــاح، كان يقيم مع زوجته في وادٍ لم يكنْ به غيره، فعاشــا فيه زمانًا وهما في أحسنِ حال، وذات يوم مرَّ به صديق من الثّعالبة يُقال له طارق ويُكنــى أبا المُغلَّــس فنزلَ على مرزوق وأحســنَ الأخيــر ضيافته، بعد ذلكَ أشــارَ أبو المُغلِس على مرزوقٍ أن يتــركَ مكانه في ذلك الوادي خوفًا من أن يأتيَه السّــيل. لم يُصــدق الثّعلَب (مرزوق) ما قيل له، فاستشارَ زوجته فيما قالَ له أبو المُغلس، فأشارتْ عليه أن لا يرحلَ عن المكان، وأنَّ صديقَه لم يطلبْ منه تركَ المكان إلا حسدًا له على عيشتهِ الهانئــة. وبعدَ وقتٍ قصير جاء السّــيل فجرفَهما بعيــدًا وألقى بمرزوق في جزيــرة نائية من جزر البحر.

بعد ذلك السّيل المفاجئ وجد الثّعلَب (مرزوق) نفسَــه في جزيــرة كانــت مملوكة لنَمــر مُتجبر، وهناك التّقى بذئبٍ في ناحية من نواحي الجزيرة التّابعة لمملكة النّمِر، فأخبره الذِّئبُ بحال المَملكة وملكِها وأنَّ عليــه أن يجدَ مكانًا آخرَ ليعيشَ فيه. ولأنَّ الثّعلَبَ معروفٌ بالفِطنةِ والذّكاء، فقد أشــار علــى الذِّئــب أن يكونَ مستشــارًا له فــي ناحيتِه هذه وأنْ يكونا تابعَين لحكــمِ المَلِك في كُلّ أمور الضّيعــة، فاستحســنَ الذِّئــبُ رأي الثّعلَب ووافقَ عليــه، وطلبَ منــه مكاتبة المَلِــك (النَّمِر) في هذا

(٧) كتاب النمر والثعلب، سهل بن هارون، ص٨.

الشّـأن وإبلاغَه بأنَّ صاحـبَ النّاحية ـ أي الذِّئب ـ سيرسـلُ له العَطايا والهدايا وأنه سـيبقى على عهده له بالولاءِ والطّاعة.

وحيـن رقَّـتْ حال الذئب عَصَـى المَلِك وأخلفَ عهـده الـذي كان قـد قطعَه إليـه، فبعـثَ المَلِك (النَّمِـر) الرّسـائلَ تباعًـا إلى الذِّئـب ليعيده إلى سـطوة حكمه، ويُذكِّره بما قطعَ على نفسِـه من أمر الولاء، فلم يزدْ ذلـك الذِّئبَ إلا جُحودًا وعنادًا، مِمّا اضطرّ المَلِك بعدَ أن فشـلَ مَن أرسله إليه في حَسـم المعركة أنْ يقودَ الحربَ بنفسِـه ويقضيَ على الذِّئب.

أمـا الثّعلَبُ فقد أسـره جيشُ المَلِـك (النَّمِر)، وهنـاك استشـارَ المَلِـك وزراءه في أمـر الثّعلَب فاختار مـن آرائهم مَن قال له باختباره، فاختبره ونجـح الثّعلَـب فـي الاختبـار، وتَغلّب علـى كُلّ مستشـاري المَلِك بما كان يمتلك من فطنة ودهاء مِمّا دعا المَلِك أن يُبقيه مستشارًا لديه حتى مات.

جـاءت الرّسـالة الأولى على لسـان النّمِر وهو يوجـه فيها خطابًا شـديدًا للذئب حيـن أبطأ عنه فيما استخلفه فيه في النّاحية التي تولاها حسبما تقول الحِكَايَة، فكانت الرّسالة ذات جمل مسبوكة النّظـم، واضحـة المَعَانِـي، يفـوح منهـا كبرياء المَلِـك وتثير في قارئها الخـوف من وعيد المُلُوك وبطشـهم، وتغرق الآخر (المرسل إليه) في التّيه والضياع والعجز عن الرّد والإجابة، فألفاظها كانت على قدر مَعَانِيها من سمو شخص المَلِك ووضاعة مناوئيه حين يتخذون التّمرد سبيلًا «لكنكَ سمنتَ وبطنتَ فاقتعدتَ الأشَـرَ وامتطيـتَ البَطرَ، ونعقَ بك الشّيطانُ مستهويًا، فسمحتَ له برأسِك، وطاعَ له جبينُك، فأنتَ مُتسـكعٌ في جهالتك، مبادرٌ في ظلالتِكَ، تظنُّ ألاَّ يُفتضحَ أمرُك» [٨]. إنَّها تهديداتٌ تثير الرّعب والخوف في نفس مُتلقّيها لما فيها من بلاغة في القصد والدِلَالَة، فهي تحملُ في طياتها جَبروتَ المَلِك وعلوَّ شأنِه ومكانته التي حظيَ بها لاسـيما لحظة الكلام وهو يهـدّد الخُصوم، وهذا ما أشـار إليه الجاحظ في قوله «أنما الألفاظُ على أقـدار المَعَانِي فكثيرُها لكثيرِهـا وقليلُها لقليلِها وشـريفُها لشـريفِها وخسيسُها لخسيسِـها»[٩]، وهنـا يتسـاءل قارئُ الرّسـالة كيف سـيكون ردُّ الذِّئب الوضيـع الذي صوَّرتهُ العبارات السّـابقة بوضاعةٍ ملفتة على وعيد كهذا؟ وكيف يكون الرّدُّ موازيًا لتلك المَعَانِي التي تضمنتها رسالة النّمِر؟ أو بعبـارة أخـرى إذا أرادَ الذِّئـبُ أنْ يخفّـف من شـدّة غضب المَلِك فعليه أن يختـارَ أدقَّ المَعَانِي والألفـاظ كـي يوفـقَ بيـن أمريـن، الأول منهما إرضـاءُ المَلِـك، والثاني الدّفاعُ عن نفسِـه وإقناعُ المَلِـك بأنه لـم يخلفْ الوعـد، ولم يخـنْ الأمانة، فجاء الرّد بليغًا بشـكلٍ يصـدمُ القارئَ ويثير فيه الانفعال والدَّهشة، فقد ردّ الذِّئب برسالة ـ أملاها له الثّعلَب الذي جعلـه بمثابةِ الوزير الكاتب ـ ما كان لها ألا أن تكون بهذا المُسـتَوَى البَلاغِيّ الذي يذيبُ غضبَ المَلِك بمجرد قراءةِ سـطورها، نقف فيهـا عند قوله «علـى أنَّ يدَ المَلِـك عندي بيضاءُ مشـكورةٌ ليستْ بمرفوعةٍ ولا مكفورةٍ، طلعُها في قلبي نَضيد، وظلُّهـا عليَّ ممدود، خَصبة خَضرة،

(٨) المَصدَرُ نَفسُهُ، ص١٨.

(٩) الحيوان، الجاحظ، ج٢، ص٤٧٦.

أغذوها بمـاءِ الشّـكر وأنمّيها بجَميل الشّـكر، لا يحصدهـا تقادم الأيامِ ولا يقدحُ فيها بزندِ الملام، وأرتضعُ درّتها فواق عن فواق فأغترفُ منها بِسَجلٍ ذي عُراق»[١٠]، وكذلك قولـه «فأين ذهب المَلِك في ظنِّه وأنا ابنُ نعمتهِ والشّـاربُ في بُلَهنيتهِ، ذرَّأني جناحَه، وكنَّفني رجاحَه، يعقلنيَ وزَره ويُنجيني عَصَـره، أفلا يَـرُبّ المَلِك ــأمتعَ اللـهُ به ـ نعمةً أنشـأ شـجرتها، وأظهرَ ثمرتها بنوافلِـه العِظام ومِننِه الجِسـام ونِعمِـه التّوامّ...»[١١] ثم يسـتمرُّ الذِّئـب بتمجيـدِ المَلِـك حتى ينحوَ بالـكلام نحوَ مَعَانِي التّعظيم، تلك المَعَانِي التي تُناسـبُ مقامَ المَلِـك وختامَ الرّسـالةِ في آنٍ واحـدٍ «فإنْ يُطلقْ المَلِكُ أسري من مَوجَدتِه فذلك ظنّي برحمتِه، وإنْ تكـنْ الأخرى ـ وأعوذُ باللهِ منها ـ فيا لها عثرةً لم يُوَقّ حاذرُها، ويا لها حسـرةً يستنجدُ عاثرُها»[١٢].

لقـد أجاد سـهل بن هارونَ هـذه اللعبة على طول مسـار الحِكَايَة، فهي تتكرر في المراسلات الأخرى، ونعني بها لعبة التّرسُّـل الذي تتراشـق فيهـا المَعَانِي والـدِلَالَات وتأخذ الألفـاظُ ميدانَها الرّحب في التّعبيرِ عن القَصد وبلوغ الغايةِ، كذلك الأمرُ لما يتضمّنُه التّرسُّـل من أفكارٍ ومضامينَ لا تنحـو بعيدًا عن سـطوةِ الثَّقَافَة في الكشـفِ عن ترجمـة كُلّ مـا يدور فـي أفق المَلِـك وخصومِه، وهو بذلكَ يثير فضـول القارئ في مُتابعة تطور العلاقة بين الشّـخصيتين، وكيف سـيكون مآلها فيما بعد؟.

وفـي الرّسـالة الثّانيـة كما تقـول الحِكَايَة إنَّ النّمِر لما قرأ كتاب الذِّئب استبشر خيرًا، وظن أنَّ الهَدايا والعَطايا ستنهالُ عليه من الذِّئب في أقربِ وقـت، لكنّ ذلك لم يحـدث، فالذِّئـب جاحدٌ عنيد مجحفٌ بحق سـادته، وهنا نودُّ الإشـارة إلى دقّة الأسماء التي اختارَها سهل بن هارونَ لشخصيات الحِكَايَـة، فقـد كانـت الأسـماءُ ذواتَ محمـولاتٍ واضحـة الدّلَالَة علـى مكنونـات أصحابِها، فهي ثيماتٌ واضحة على تحركاتِ أصحابها في مَجرى الحِكَايَـة، فالذِّئـب (مُكابر بن مُسـاور) أودَى به كِبره وغـروره إلى الهـلاك، والثَّعلَـب (مرزوق) ويكنى (أبو الصّباح) كان ذا عقلٍ راجح، وصديقه الذي أشار عليه بترك المكان (طارق) لما في هذا الاسـم من دِلَالَة على حصـول أمرٍ فُجائي وهو ما حصلَ بالفعل حين طرقَ مرزوقًا السّـيلُ ليلًا. أما النّمِر فهو (المُظفر بن مَنصور) ذلك الاسـم الذي يناسبُ مقام المَلِك ويحفُّه بالنصر والهيبة.

بعد التّرسُّل الأولِ بين الخَصمين المُتراشقين، لـم يحصـلْ النّمِـر على أي شـيءٍ مِمّـا وعده به الذِّئب، فبعثَ إليه برسالةٍ أخرى كانتْ أشدَّ وعيدًا من سـابقتها، فقد وصـفَ الذِّئب فيهـا بالغرور واستشـهدَ بالمثلِ المشهور (ومن استَرعَى الذِّئبَ فقد ظلـم) وأنَّه قد اسـتعذبَ مـواردَ البَطر، ولم يَشكر صاحبها[١٣].

(١٠) كتاب النمر والثعلب، سهل بن هارون، ص٢١.

(١١) المَصدَرُ نَفسُهُ، ص٢١.

(١٢) المَصدَرُ نَفسُهُ، ص٢١.

(١٣) يُنظَر: المَصدَرُ نَفسُهُ، ص٢٢.

لقد أدت الرّسالة الثّانية غايتها من التّهديد والوعيد، ووصف الذِّئب بكلِّ أوصافِ البطرِ والجحود بجملٍ قصيرة غزيرة المَعَانِي والدِلَالَة لاسيما تلك التي تتضمن مَعَانِي القرآن الكريم أو أنصاف أبيات شعريّة مَعروفة أو حكم مأثورة نذكرُ منها قوله «فجرى في كسف ليلٍ داجٍ على شفا جرفٍ هارٍ، يتورّطُ المَهالكَ ويخبطُ خبطَ عَشواء» [١٤]، بل إنَّ الأمر يتعدى ذلك ليصل إلى مدىً أبعد حين يستشهد النّمِر بقوله تعالى (وما ربُّك بظلّامٍ للعَبيد) أي أنَّ الذِّئب سيلقَى حتفه بما كسبتْ يداه لا بظلم المَلِك، أمّا النّمِر فهو الصّابر على طغيان الذِّئب، واسع الصّدر لخطاياه «ولولا ما أحببتُ من أنْ أكونَ بالغَ عُذر، ولا مرهقَ عُسر، ولا طالبَ اعتلالٍ بتركِ مظاهر الحُجَج وتوكيدها، قابضًا يدَ العقابِ قبل المُداورة وملبسًا جناحَ الرّحمة قبل النّقمة لأمسكتُ عن الكتابِ إليك والعلم لك إلى أن تُبسَلَ بما كسبتْ يداك...»[١٥].

وهنا يُظهر النّمِر نفسه بكتابه هذا على أنه الحَليم الذي لا يعاقبُ دون رويّةٍ وصبر، بينما يُظهر الذِّئب تمرده علنًا ويطلب من الثّعلَب أن يردَّ على كتابِ النّمِر بلغةٍ تتباين بين الإلانة والغِلظة، فهو يعللُ للنَّمر في بدايةِ الرّسالةِ أنّ تأخيرَ ارسال العطايا والهدايا كان بسبب انشغاله بأمور النّاحيةِ التي تولّاها وأنَّه أعادَ فيها الاستقرار والأمن، أما النّمِر فهو لا يعرفُ شيئًا عن ذلك، فكل همّه الحصول على العطايا والهدايا والحفاظُ على هيبتهِ وسلطانه، وهذا ما دفع الذِّئب بتحويل خطابِه من اللينِ إلى الغِلظة، بل حتى إلى إشهار السّيف «فإن يستتمّ المَلِكُ صنيعتَه، ويربّ نعمتَه فأنا بين العصا ولحاها، وألا فسيجدُني جِذلَ حُكَاكٍ إذا نكأتُ قرحةً أدميتُها، أحمرَ ضرابًا بالسّيف والسّلام»[١٦]. هذا ما كشفت عنه الرّسالة الثّانية، فهناك نمرٌ حليم لا يعاقب دون جريرةٍ، وذئبٌ عنيدٌ وجاحدٌ أن يُهوِّن من قدر المَلِك. ونرى هنا أيضًا أنَّ سهل بن هارونَ قد ألحَّ على إثبات هذه الصّفة ـــ أي صفة الحلم ـ في النّمِر وهو بذلك ربما يريدُ الإشارة إلى تبريرِ عملِ المُلُوك حين يُقدمون على شيءٍ ما، ويضفي على أفعالهم صفة الخيار الأخير، لذا يطلبُ النّمِر من الوزراء إبداءَ آرائِهم في الخطوة التّالية، ويَسمعُ لهم بكل رويّةٍ وهدوء، مختارًا الرّأي الذي يثبتُ له صفة الحِلم وعدم التّسرع في اتخاذ القرار، لذلك فهو ـ أي النّمِر ـ يفضّل في النّهاية رأيَ الوزير الأول الذي اقترح عليه إرسال كتابٍ آخر يكشفُ به عمَّا في صدره، كي يلقيَ عليه تمامَ الحُجة[١٧] وهنا جاءت الرّسالة الثّالثة التي كانت انعطافًا خطيرًا في تسلسل الأحداث ونهايةً لحلمٍ وصبر طالَ أمدُهما على ذئبٍ مُتَمَرِّد يَعصي سلطانَه ولا يعرفُ قدر نفسه «أما بعد فإنّي رأيتكَ تقدّم رجلًا وتؤخّر أخرى، فإذا نظرتَ في كتابي هذا فاعتمدْ على أيِّهما شئتَ، فإن كنتَ سلمًا فأقبلْ، وإلا فأذنْ بحربٍ والسّلام»[١٨].

وعلى الرّغم من قصر الرّسالة هنا على مُستَوَى ألفاظها ومَعَانِيها، فقد وضعت الذِّئب أمام خياري السّلم والحرب، إلا أنَّ الذِّئب بقي

(١٤) المَصدَرُ نَفسُهُ، ص٢٣.

(١٥) المَصدَرُ نَفسُهُ، ص٢٣.

(١٦) المَصدَرُ نَفسُهُ، ص٢٦.

(١٧) يُنظَر : المَصدَرُ نَفسُهُ، ص ٢٧.

(١٨) المَصدَرُ نَفسُهُ، ص٢٨.

مُصرًّا علــى العناد والتّمــرد، لذا يحــاول الثّعلَب إقناعــه بتــركِ العنــاد وإنْ ينقــادَ لرغبــة النّمِر، فالثَّعلَبُ بوصفه مستشــارًا وكاتبًا للذّئب يخوضُ مناجــزة كلامية يحــاولُ فيها إقنــاع الذِّئبِ وجره نحو السّــلم والطّاعة، وهذا ديدنُ الثّعلَب في هذه الحِكَايَة وغيرهــا، فهو الحكيمُ الذي يَعرف تدبيرَ الأمور ويتنبأ بعواقبِها السّيئة لما يمتلكُ من فطنة ودهاء، ولأنَّ الحربَ تتطلبُ رأيًا صائبًا يفتقرُ إليه أصحــابُ القرار إذا تخلوا عن مشــورة مَن يتحلّى بالحكمــة والصّبر وهو ما تجسّــد في شــخصية الثّعلَــب[١٩]، لذلك جــاء رأي الثّعلَب للذئبِ حكيمًا ومسالمًا ينتهجُ سبيل الخلاصِ من سلطان المَلِك، لكنَّ الذِّئبَ لم يأخذْ بــرأي الثّعلَب، فقد أصرَّ على تمرده وعناده، وطلبَ من الثّعلَب أن يبعثَ برسالة إلــى النّمِر كانت على مُســتَوَى رفيــعٍ من البلاغة والجَمال، إذ تضمّنت مقولاتٍ ثقافيةً وخطابًا قلَّما ســمعَه المُلُــوك، ولعلّ أبــرزَ ما جاء فيهــا هو أنَّ الذِّئب أخذ يتحدثُ بلسانِ الدّهر، وكيف أنَّ المُلُوك يتناســونَ دائمًا مصير الهزيمــةِ والهلاك، وأنَّ يدّ الدّهــر قادرةٌ علــى هلاكهم، ولكنهــم لا يتعظون أبدًا «وقد عَوَّدتك الأيام حيفَ دولها، وأجرَّتك حبلَ غرورهــا، وأغفلتك عــن نَصبِ خِدَعِها، وألبســتكَ حللَ مُتعِها، واستخفّكَ مهلُ الزّمان، وأعجبك كثرةُ الخَولِ والأعــوان، حتى ظننــتَ أنَّ صرعتك حرامٌ على الدّهر، وأنَّ يومَكَ مَنسيٌّ إلى الحَشر...»[٢٠].

إنَّ القــارئ المتتبع لهذا التّرسُّــل المتصاعد بين خصمين لَدودين يظنُّ أنَّ الحِكَايَة بمجملِها حِكَايَة ترسُّــل أرادَ سهلُ بن هارونَ أنْ يُفرغَ فيها براعتَه الأدَبيّــة في هذا الفَــنّ، والقارئ هنــا معذورٌ في ظنِّه هذا، فالتَّرَسُّلُ يتضمّنُ أدقَّ المَعَانِي والألفاظِ التي بســببِها يتسارعُ الحدثُ وينمو في الحِكَايَة، فالمَعَانِــي تأخذُ القــارئ للتّحمّسِ لهــذه الحربِ الكلاميّة، والألفاظُ تجعلُــه ـ أي القارئ ـ يَطرَبُ لما يمتلكُه ســهل بن هارونَ مــن مخزونٍ لفظيّ على لســانِ النّمِر والذِّئــب ربّما ينــدرُ أنْ يمتلكَهُ كاتبٌ آخر، ناهيك عن قوةِ السّــبكِ الذي تفوحُ منه رائحةُ التّصوير وبَلاغة المَنطق.

لــم يكنْ للنَّمر خيارٌ بعد أنْ وَرَده كتابُ الذِّئب الــذي أقلقَه كثيــرًا إلا أن يُجهزَ له قائدًا متمرسًــا يُســمى (الوَثّاب ابن المُنتهــش) وكان نمرًا أيضًا، وقــدَّم إليــه كتابَــه يُرعبــه فيــه ويذكــره بديدنِ الشّــجعان حينَ تكــونُ الحرب خيارَهــم الأخير، فهــم أهلُهــا ورجالُها، لذا جاءتْ الرّســالة الرّابعةُ شــديدةَ اللهجةِ طافحــةً برائحةِ الحــربِ ومُنذرةً ببأس شديد «أما بعدُ يا ابنَ اللكيعةِ وعبدَ العَصا، أبالحَــربِ تُخوّفُنا، ونحنُ فلــقُ جَوَّانها، ومراضعُ ألبانِهــا، ومُثيــرو عَجاجِهــا ورهجِهــا، وخائضو أغمارِهــا ولجاجِهــا، وســحائبُ الدّماء بســيوفِنا تَنْهــل، وبروقُها من صفائحِنا تَنْــكل، فنحنُ أبناء الحُتوف، وفضلاتُ السّيوف...»[٢١]، وهكذا يستمرُّ سهل بن هارونَ على لسانِ النّمِر في صياغة أدقّ المَعَانِي والألفاظ لإثباتِ هيبة المَلِك وطولِ مراسِه في الحربِ وقوةِ بطشِــه وشدّةِ بأسه، وهنا برأينا

(١٩) يُنظَر: شخصية الثعلب في المرويات السّرديّة العَرَبيّة للعصر العَبَّاسيّ الحِكَايَات أنموذجًا، د. ســنان عبد العزيز عبد الرحيم، ص٤٧.

(٢٠) كتاب النَّمر والثَّعلب، سهل بن هارون، ص٣١.

(٢١) المَصدَرُ نَفسُهُ، ص٣٢.

يَستنفرُ سهل بن هارونَ كُلّ الطّاقاتِ والمَلَكات تلك التي عاشَ أجواءَها وهو نديم المُلُوك، فقد سمع كثيرًا أحاديث القُوَّة والبأس من أفواهِ الخُلَفَاء وقادةِ جيوشِهم حينَ يعودون من الحَرب ليرووا لملوكِهم أساطيرَ الشّجاعة وقهر الأعداء، لذا جاءتْ الرّسالةُ هذه مليئةً بهذه المَعَانِي دون غيرها. فلما انتصرَ الذِّئب على (الوثَّاب بن المنتهش) وجاءَ خبره للنَّمر، أمر قائدًا آخرَ يُدعى (خدَّاش بن عَضَّاض) وقدَّم كتابًا إلى الذِّئب أيضًا، يذكرُ فيه أنَّه من ملكِ النّمور (المُظفَّر بن مَنصور)، فهو بحاجةٍ هنا إلى التّذكير بهذا الاسمِ كي يحافظَ على النّسقِ المتصاعد للأحداثِ، وإضافة ما أمكنَ من هيبةِ المَلِك الغائبِ الذي وطئَ الأعداءُ أرضَه وقتلوا جُنده، لذا جاءتْ الرّسالةُ الخامسةُ متضمّنة سخونةَ الموقف، ولهفةَ أصحابِ الثّأر بالانتقامِ والبَطش، بالإضافة إلى شيءٍ من التّعريفِ بالقائدِ الجديدِ وما يَحملُه من العُدّة والعّدد والبأسِ ولوازمِ الحَرب «لو قد رأيتَ حَلَقَ الحَديدِ مُضَاعَفَ التّشديدِ، وخوافقَ البُنودِ مَحفوفةً بالجُنودِ، وبَوارقَ السّيوفِ تَضحكُ إلى الزّحوفِ... وأعلمْ أيها المغرورُ أنَّ للباطلِ دولةً ينصرُها حيفُ الدّهر وتسلّطُها الأيامُ بالقَهر، وتنكبُها غلبةُ الأنذالِ وحُجج الجهال، ويحوطُها حُسّاد النّعمِ وسُقّاط الهِمَم...وقد وَجَّهتُ للقائِكَ خَدَّاشَ بنَ عَضَّاض، مُنازلَ الأقران وأخا الحَرب العَوان، متَّزرًا بالحَزم، ومتيقظًا بالعَزم، يقدُمه النّصرُ، ويتبعُه الظَّفَر...»[٢٢].

ودارتْ الحربُ بين الذِّئب وخَدَّاش وانتهتْ بنصرِ الذِّئبِ أيضًا، لكنَّه جُرحَ وحُمِلَ مغشيًا عليه، وفي ذلك إيذانٌ لمَا هو آتٍ، فلم يكنْ من النّمِر إلا أنْ يَستشيرَ وزراءه ويأخذُ برأي قريب عن نفسه ألا وهو الذهابُ بنفسِه والخلاصُ من هذا الذِّئب المكابر إلى الأبد، وهذا ما حدث فعلًا، إذ قادَ النّمِر بنفسِه المَعركة الأخيرة بعد أن نفدَ صبره من ذلك الذِّئب المُتَمَرِّد، فقتل النّمِرُ الذِّئبَ وعاثَ فسادًا في مُلكِه وناحيتِه، وأسرَ مَن أسرَ من جيشِهِ وحاشيتِه، فوقعَ الثّعلَبُ مُستشارَ الذِّئبِ أسيرًا في يدِ النّمِر أيضًا.

هكذا تنتهي الحِكَايَة بقتلِ الذِّئبِ وأسرِ الثّعلَب، وتنتهي مَعها تلكَ المُراسلاتُ الشّيقة التي أثرَتْ الحِكَايَة وأسهمتْ في اضافةِ عنصر التّشويق على أحداثِها بشكل واضح جَليّ، ثم تنحو الحِكَايَة منحىً آخر يكاد يُنسي القارئ كُلّ ما حصل من أمر التّرسُّل والحرب، فهي تَتّجهُ نحو وتيرة من الجِدال والنِّقاش في المَنطق والحكمة ورَجاحةِ العقلِ بين الثّعلَبِ ووزراءِ النّمِر، تنتهي بغَلَبةِ الثّعلَبِ وفوزِهِ بالبقاءِ قريبًا من النّمِر حتى وفاتِه. وما يتّضحُ لنا في الجزءِ الأخير من الحِكَايَة هو أنَّ سهل بن هارونَ أراد أنْ يبثَّ في حِكَايَته أيضًا ما كان يمتلكُه من فنونِ المُجادلة التي كانتْ سائدةً آنذاك، ونقصدُ كثرة الجدال الذي اتّصفَ به العَصرُ العَبَّاسيّ في موضوعاتٍ تخصُّ الدّينَ والمنطق وعلمَ الكلام وغيرها.

خلاصةُ ما نودُّ قولَه هو إنَّ التّرسُّل في هذه الحِكَايَة الشّيقة كان عنصرًا مهيمنًا وقارًا، بل هو الوسيلةُ التي تطورتْ إثرَها الأحداثُ وارتكز عليها البناءُ السّرديّ للحِكَايَة، هذا من جانب،

(٢٢) المَصدَرُ نَفسُهُ، ص٣٥.

ومن جانب آخر، فقد كشف التّرسُّل عن مكنوناتٍ ثقافيّة وفِكريّة ونفسيّة أثارَها الكاتبُ وجعل منها قيمة فَنّيَّة تشد القارئَ نحو متابعة ما يؤولُ إليه الأمر، وتجعلُه يراقبُ عن كَثَب مَجرى الأحداثِ، لذا فإنَّ بَلَاغَة التّرسُّلِ في الحِكَايَة لا تقتصرُ على ما تَضمَّنتهُ من فنونِ الكلام، بل تَتَعدّاهُ إلى شيءٍ يرتبطُ بحبكةِ السّردِ، وكيفيةِ جذبِ القارئ لهذه الحِكَايَة التي جاءتْ حافلة بكل ما يَجعلُها مُثيرةً وهادفة.

المصادر والمراجع

- أديب الأسطورة عند العرب (جذور التفكير وأصالة الإبداع)، فاروق خورشيد، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٢٨٤) الكويت،٢٠٠٢.
- بلاغة الكُتَّاب في العَصر العَبَّاسيّ، الدكتور محمد نبيه حجاب، منشورات جامعة أم القرى، ط٢، ١٩٨٦.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تح : عبد السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، (ب ت).
- حِكَايَات الحيوان في التُّراث العَرَبيّ، محمد رجب النجار، (بحث) مجلة عالم الفكر، مجلد (٢٤)، العددان الأول والثاني، الكويت،١٩٩٥ .
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥)، تحقيق وشرح عبد السّلام محمد هارون، دار إحياء التُّراث العَرَبيّ، بيروت، لبنان، ط٣ ١٩٦٩.
- شخصية الثعلب في المرويات السّردية العَرَبيّة للعصر العَبَّاسيّ، الحِكَايَات أنموذجًا، (بحث) د. سنان عبد العزيز عبد الرحيم، مجلة آدابِ الفراهيديّ، جامعة تكريت، مج١ عدد (٢٢) حزيران ٢٠١٥.
- الفهرست، ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحق ت ٣٨٠ هـ) طبعه وشرحه د. يوسف علي الطويل، ووضع فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكُتبِ العلميّة ط١ بيروت ١٩٩٦.
- قصص الحيوان في الأدب العَرَبيّ، عبد الرزاق حميدة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١ (ب ت).
- كتاب النَّمِر والثَّعلب، سهل بن هارون (ت ٢١٥)، حقّقهُ وقدَّم لهُ وترجَمَه إلى الفرنسية عبد القادر المهيري، منشوراتُ الجامعة التونسيّة، كلية الآداب والعلوم الانسانية، تونس،١٩٧٣.